لعلكم تتقون (*)

إن الله الذي شاء ـ وهو الحكيم الخبير ـ أن يكون المسلمون أمة وسطاً شهداء على الناس، وأن يحملوا إلى العالمين ما به يستقيم أمر الإنسان، ويدرك معنى وجوده وخلافته في هذه الأرض.. جعل من شرعة الإسلام خير أداة لتكوين الشخصية المسلمة القادرة على تحمل الأعباء، والتزام المنهج الواضح الذي يوصل إلى الغاية، ويحقق لبني البشر سعادة الدارين.

وإنك واجد في «الصيام» الذي هو واحد من أركان الإسلام الخمسة بحراً زاخراً من الخير، ونبعاً غامراً لا يني يتدفق بأكرم معاني التكوين والإعداد.

وإذا كنا لا نبغي أن ندير الكلام حول تفصيلات الأحكام في تلكم الشرعة المباركة، ولا أن نفيض القول في الحِكَم التي تترتب على القيام بهذه الفريضة، فإن من الخير أن نقف وقفة يسيرة عند قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ التي جاءت في إعلان افتراض الصوم بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾.

إن المتقين هم الذين يجتنبون كل ما يُوقع في الأثم من قول أو فعل، فهم يمتثلون ما أمر الله به ويجتنبون ما نهى عنه؛ وقايةً لأنفسهم من عذاب الله وسخطه.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السابع، السنة العاشرة، رمضان ١٣٨٩هـ، تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٦٩م.

فالتقوى - وهي مشتقة من الوقاية التي يضعها المؤمن بينه وبين عذاب الله وسخطه - هي الصفة التي يراد أن تلازم المؤمن ثمرة للصيام الذي فيه الصبر، وفيه الأمانة، ومراقبة الله عز وجل في السر والعلن، إلى جانب مخالفة المألوف واقتحام عقبة الانتصار على الشهوات، مما يمهد للقدرة على الجهاد ومتابعة الطريق.

ولكن مدلول هذه الكلمة عندما نبصره من خلال القرآن الكريم وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، نرى دائرته تتسع حتى تتجاوز المفهوم القريب الذي يتصل بأمور العبادة الظاهرة من فعل وترك فحسب.. إلى ساحة تشمل في نظرنا كل ما يمكن أن يسهم في تكوين صحيح للإنسان المسلم، يجعل منه إنساناً يتحرك على مستوى الرسالة التي أنيط به أداؤها، والأمانة التي حملها يوم رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد - صلوات الله عليه - نبياً ورسولاً.

وفي هذا جواب عن كثير من التساؤلات اليومية عن مدى قدرة المسلمين على الحركة من جديد، وعن الفارق بين اليوم والأمس. الواقع - كما يقال - «حولها ندندن» إنه يوم كانت الجماعة المسلمة تخط طريقاً في ظل الوحي على صعيد المعرفة والحركة، كان هنالك شخصية مسلمة بالمعنى الصحيح، وكان الذي يميزها يومذاك ما كنت تراه من أهلية التلقي وأهلية العطاء، فالقرآن للعمل، وحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للاتباع، والآيات الكريمة لم تكن تتنزل في هواء من الهواء، والأحاديث لم تكن ترد على أرض من الضياع، فالعقول منوَّرة بالهدى، والقلوبُ متصلة بالله.

يؤكد ذلك ما كان من صدق الصراع بين الكفر والإيمان، ووضوح المقاييس التي على هديها كانت تباع الأرواح رخيصةً في سبيل الله.

صحيح أن المجتمع المدني في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن يخلو من مرضى القلوب والمنافقين ـ وهذه سُنَّة طبيعية ليظل الابتلاء قائماً ـ إلا أن الحقيقة القائمة هي أن الإنسان المسلم قد وُجد، بكل ما في هذه الكلمة من معنى. والشخصية المسلمة التي تستمد تصوراتها من الإسلام نفسه قد أخذت أبعادها، حتى صارت هي تفرض المناخ الصالح للعمل وتعطي لكل شيء قدره، ولكل خطوة ما تستحقه من القيمة هنا أو هناك.

إن تصديق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ التصديق الذي أذهل التاريخ ـ وهو الذي عاش في الجاهلية ما يقارب الأربعين عاماً. وما رأيناه في كثير من أولئك الرجال ـ يعطي الصورة الصادقة عن تلكم الأهلية للتلقي، الذي أثمر العطاء فيما بعد.

ينزل قول الله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾ فيهرع الصحابي أبو الدحداح ويقدم حائطه (بستانه) قرضاً لله عز وجل، ويجد من زوجه المسلمة ما دل على سلامة تصورها هي الأخرى وأنها إنما تستمد هذا التصور من مضمونات آي القرآن وأحاديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ويقول عوف بن الحارث ـ يوم بدر ـ: يا رسول الله، ما يضحك الرب «يرضيه غاية الرضا» من عبده؟ فيقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

[**غمسه يده في العدو حاسراً**]. فينزع عوف درعاً كانت عليه ويقذفها، ثم يأخذ سيفه فيقاتل القوم حتى يقتل.

وهكذا كانت القدرة على التلقي كما أراد الإسلام، فكانت القدرة على العطاء كما يريد الإسلام، حركة تنسجم كل الانسجام مع المعرفة، وتأخذ معها الوضع الطبيعي في ميزان لا يعرف العول.

أما شخصية المسلم اليوم: فقد أصبحت ـ عند الكثيرين ـ غزواً لعديد من المفهومات الحضارية الحديثة، وكثير من الشكوك والأوهام التي جعلت من الإسلام صورة مهزوزة في نفوس الكثيرين.

ناهيك عن أن القيم والمثل التي أصبحت مبتغى الكثيرين قد تكون على غاية التجافي مع ما يوحيه وجود الشخصية المسلمة اليوم.

إن السيف الغازي بدعوة الخير في الماضي: لم يكن ظاهرة انتصار جيش على جيش فحسب، ولكن كان قبل هذا إعلان انتصار الإسلام في نفوس الأفراد والجماعة، حتى كان النصر في المعركة امتداداً لذلك البناء الداخلي العظيم. وعناية الله ونصره وتأييده: كل أولئك كائنٌ دائماً ما كانت تلك النفوس العامرة بالإيمان، المصدقة بما عند الله، المتطلعة إلى الغد بعين المؤمن البصير الذي وهب حياته لدعوته، وباع نفسه في سبيل الله.

إن بوناً شاسعاً في المقدمات والنتائج بين أن يكون الإسلام عندنا نداء الحياة نسمعه للاستجابة، ونستلهمه مقاييس الحياة، ونستمد منه تصوراتنا وأصول

معارفنا وتكويننا الفكري والحضاري، وبين أن يكون المراد منه تسويغ واقع نحن فيه، وانحراف نتلمس له من هنا وهناك الفتاوى والمعاذير.

إن المجتمع العربي في الماضي، ومنْ بعده المجتمعات التي غزاها الإسلام: كان شعارها أن تعطي الإسلام مركز القيادة وتُسَلِّم له الأمر؛ ليعمل في ذلك المجتمع عمله، وليطوره كما شاءت إرادة الله وكما أوضح رسول الله.

ولعل المسلمين اليوم في كثير من أمصارهم يريدون من الإسلام أن يقدم لهم المسوغات لانحرافاتهم عن الإسلام، فإن فعل ذلك كان مركز الصلاح والإصلاح، وإلا فهو لا يصلح للحياة.

إن إباء النصوص الإسلامية لأن تكون مسخَّرة لتحوُّل المسلمين: تفتي لها وتعطي مسوغات وجودها، هو الدليل عند الغافلين والمتغافلين من المسلمين اليوم على عدم صلاحية الإسلام للحياة، أو عدم قدرته على أن يسير بنا إلى حيث نزعم من النصر والغلبة وارتقاء سُلَّم المجد من جديد.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما قد أصبح سمةً ميزةً بارزةً من حب العافية والضعف عن متابعة الطريق التي يفرضها الإسلام، رأيت الأمر أوضح من الوضوح.

فالإسلام إذا لم يعطِ المسوغ للوضع الذي نحن فيه - والذي هو في أكثر الأحيان صورة عن جهلنا بالإسلام، أو الاستسلام للشرك الذي نصبه الأعداء، والمفهومات التي سيطروا بها على النفوس - فقد استنفد أغراضه

ولا معنى لوجوده. وما دمنا لا نستطيع أن نسلك الطريق الصاعدة ونصبر على متطلبات الوصول إلى القمة، فالإسلام لا يصلح للحياة. وما دمنا غير قادرين لجهلنا وانهزامنا النفسي أمام الغزو الحضاري الجديد والتآمر الفكري الرهيب على أن نفيء إلى ظل الإسلام كما أنزله الله: فالإسلام إذن قد استنفد أغراضه وخلَّفته قافلة التاريخ.

الإسلام الذي كان به وجودنا وقدرتنا على العطاء، وإلهامنا الحضاري الإنساني، نريده اليوم ليكون أداة تسويغ لما نقوم به من الإمساك بسكين الجزار التي تقدم على الضحية دون رحمة ولا هوادة. وبعبارة أوضح نريد تأويل نصوصه وتطويعها لإسلام جديد ابتدعناه نحن من عند أنفسنا، أو اخترع لنا وزعمنا أنه دين الله، والمعاذ الله.

إن الشخصية المسلمة ـ بقيمها بمُثلها بتصوراتها ـ هي التي تستطيع على المدى أن تحقق في الأرض كلمة الإسلام. وإن المحتوى لهذه الكلمة لابد له من المناخ الطيب الذي يجعل نماءه طبيعياً مستمراً لا تعصف بوجوده العواصف من هنا وهناك. وهي بهذا الوصف تستطيع أن تستقطب جميع الاختصاصات، وأن تفيد من كل الطاقات، وأن تعمل على الاصطفاء المنهجي الذي لا تضيع معه موهبة، ولا يتبدد في ظله جهد.

إنك لو عدت إلى أسباب نزول كثير من الآيات وما كان من أثر الآيات بعد النزول لرأيت عجباً أشد العجب. ولو حاولت أن ترى أسباب ورود كثير من الأحاديث والوقائع التي ورد بشأنها ذلك الكلم الطيب، وما كان

من الأثر المنتج عند أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأذهلتك ـ كما أسلفنا ـ النتائج.

إن الإسلام هو الإسلام، وإن القرآن هو القرآن، بل إن كثيراً من ألوان التيسير بأجهزة الإعلام والمطبعة ووسائل النشر، قد جعلت وصول القرآن إلى الناس على غاية البساطة والسهولة. وإن أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هي أحاديثه، وهي الزاد الذي ما بعده من زاد من أجل تكوين الشخصية المسلمة.

ولكن السلف سمعوا دعوة الإسلام للاستجابة، وسمعوها وهم على صهوات جيادهم يتحركون، ونحن نسمعها والتثاؤب يملأ علينا وجودنا، وطلب العافية يسد علينا منافذ الطريق، والتصورات المجافية لأصول دعوة الإسلام تملك علينا ناحية التأمل والفكر.

ألا إننا واجدون ـ إن صدقنا الله العهد ـ أن الحاجة ملحة بما لا يقبل المزيد إلى أن نفهم التقوى كائنة في العبادة وما وراءها من سلامة التصور، وأخذ النفوس بمقاييس الإسلام. والذين يضعهم الله موضع الريادة الفكرية، والأمانة على الأجيال، وحفظ معاقل الإسلام في العالم الإسلامي مسؤولون عن التقوى في هذا المضمار أكثر وأكثر.

والتقوى باب مشرق لا ترى وراءه إلا الخير، ولا يوصلك إلا إلى منافذ السعادة ومرضاة الله عز وجل. وحسبك في هذا أن الله تعالى أعلن بكلامه الخالد أن القرآن هدىً للمتقين ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فهو

كتاب لا ريب فيه؛ إذ إنه ليس محلاً لأن يرتاب فيه عاقل منصف في أنه نزل من عند الله وفي هدايته للبشر، وهو هدىً لأن معه من الدلائل ما لو تأمله متأمل لم يتطرق إلى نفسه أدنى شك. والمتقون هم الذين ينالهم شرف تلك الهداية.

وإنه لميدان فسيح ذلك الذي تراه بعد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ وقوله: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ وقوله جل وعز: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**﴾.

إن صياماً يثمر التقوى ـ كما أرادها الله ـ ويظفر صاحبه بمغفرة ما سبق من الذنوب: هو الصيام الذي يحمل عنوان القبول لما أنه كان إيماناً واحتساباً، ويزينه في الوقت نفسه: أنه خطوة على صعيد الفرد والجماعة في طريق أن تأخذ الشخصية المسلمة القادرة على تحمّل العبء وما تمليه أمانة الإسلام دورها من جديد.

ساعة مع كتاب الله(*)

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحابته ومَنْ والاه.

وبعد فهذه كلمات يراد لها أن تأخذ مكانها في قلوب الإخوة الصادقين وعياً وشعوراً وإدراكاً، في إطار أداءٍ لحق الله فيما افترض على عباده من النصيحة والعمل في مرضاته، وانتهاج السبيل التي تؤدي إلى تحقيق العبودية الخالصة لله على هذه الأرض التي كرَّم الله فيها الإنسان، فحمَّله أمانة الخلافة فيها، وجعل منه أهلاً لحمل رسالة الخير والحق والفلاح، كيما تتواكب كل الطاقات التي وهبها الله له على طريق العمل الصادق الذي به يكون العبد عبداً بعيداً عن كل وثنية، مجافياً لكل ما يتنافى مع حقيقة الشكر لله المنعم المتفضل الذي قلَّده أمانة الخلافة، واختاره من بين مخلوقاته لها.

ولن يكون يسيراً أن نقتحم الصعاب، لنقوم بعملية تصنيف لأولئك الأفراد من البشر؛ مَنْ منهم سلمتْ له أقواله وأفعاله وتصرفاته، فكان في موقف الكرامة، ومَنْ منهم ضل السبيل واتخذ الحجب والأستار دون فطرته، وأقام بينه وبين الحق حواجز من الشهوات والضلالات، فكان أسير أعراض خطيرة من الانحراف عن مقتضيات الفطرة أولاً، وعن نداءات أدلاَّء السعادة ثانياً.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد السابع، السنة العاشرة، رمضان ١٣٨٩هـ، تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٦٩م.

لقد كنا نعتقد وما نزال أن الدواء الوحيد لما يعانيه الإنسان من مرض التجافي مع الفطرة، إنما هو إصلاح القلب الذي بيده قياد تصرفات الجسم والأعضاء؛ لأن هذا القلب إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، كما بيَّن الصادق المصدوق ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فالتصرفات والتحركات، إنما يكون ميزان ضبطها الحقيقي نابعاً من القلب، إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر.

وإصلاح القلب هذا لا بد له من قناعة مبدئية بضرورته، وأنه أمر حتمي لازم لسعادة صاحبه في الدنيا والآخرة، فإذا توافرت هذه القناعة كانت الخطوة التالية التي تتلوها خطوات على صعيد تهذيب النفس وتزكيتها كيما تصفو أعمال القلوب من الأكدار.

وإذا صاحب تلك الخطوات التوفيقُ تفجرت ينابيع الحكمة وأضاء الطريق، وكان خير ما يزين هذا الإنسان دينٌ تصان حدوده، وشريعةٌ تحفظ معالمها، وعطاء إلهي لا يَنْفَد ﴿**كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾.

وفي هذه الطريق يحسن أن نذكِّر بالقرآن الذي جعله الله شفاء ورحمة للمؤمنين.

إن التزاماً يلتزمه الإنسان من جلسة هادئة مع كتاب الله كل يوم في تلاوة لبعض الآيات الكريمة ومدارستها والتدبُّر لمعانيها ـ خصوصاً في رمضان ـ، والتصور الصادق للصورة التي أحاطت بها يوم نزلت على رسول الله

ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، كيف نزل بها جبريل؟ كيف تلقاها رسول الله؟ كيف كانت حاله؟ كيف كان شعوره؟ على أي صفة كان قلبه؟ كيف كان يستشعر هذا الفيض الإلهي من السماء؟ كيف كان ينظر ببصيرته إلى هذا القرآن الذي كان نزوله مظهراً من مظاهر النعمة، ووجهاً من أوجه الاصطفاء أولاً، وأمانة ثقيلة يراد تبليغها بدقة وشمول ثانياً ؟

ثم كيف كانت حال أصحاب النبي صلوات الله وسلامه عليه وهم يشهدون متنزل الوحي؟ كيف كان تهيؤهم لتلقي هذا الوحي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ كيف كان إدراكهم لأبعاد الآيات التي تخاطبهم مرغبةً مرهبةً، منذرةً مبشرةً ؟

كيف كان استسلامهم لكل ما يمكن أن تأتي به الآيات من تغيير جذري يأتي على البقية الباقية لديهم من موروثات الجاهلية؟ فالآيات تخاطب العقل، وتخاطب القلب، وتحرّك الشعور، وتثير مقومات الإدراك، وتحمل في كثير من الأحيان سياط التأديب؛ تؤدب به الظالم، والروح والريحان تكرم به من استقام على الطريقة ووقف عند حدود الله.

إن جلسة هادئة كهذه فيها شيء من التلاوة الواعية والمدارسة التقية النقية والتدبر المدرك، والإحاطة بالصورة التي تخدم الحقيقة، تلك الصورة التي تمر بالمسلم ذكراً كان أو أنثى على ساعات من أيام الليل والنهار لصاحب الرسالة صلوات الله عليه، وتمر به على ساعات من أيام الليل والنهار للذين كانوا معه كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه. وتمر به

على ساعات وقف فيها الزمن خاشعاً خاضعاً يتلمس الرضا وينتظر بفارغ الصبر كلمة تفتر عنها شفتا محمد بن عبدالله الذي كان ـ وهو في مكة ـ يمشي على الشوك ليغرس عقيدة التوحيد، ويستأصل جذور الجاهلية والشرك، وكان ـ وهو في المدينة ـ يقيم للإنسانية صرحاً تتفيأ ظلاله في أقاصي الأرض على مدى القرون والأجيال.

إن ساعة كهذه جديرة أن تفعل الكثير، جديرة وربِّ السماء والأرض أن تجعل منك خلقاً آخر تروح وتغدو على حال غير التي كنت عليها يوم كان القلب تحجزه عن الحقيقة شتى الحدود ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾.

واذكر أيها الأخ المؤمن وأنت تقرأ أنك تناجي صاحب الكلام الذي تقرؤه، فليس الأمر عبثاً من عبث، ولا تمضية لساعة من ساعات الفراغ، ولكنه مناجاة ربِّ العالمين.

واذكر أن الأمانة على قدر الوعي والإدراك، وأنك تقرأ كلاماً ما تغير منه حرف ولا تبدلت فيه كلمة، إنك تقرؤه غضاً طرياً كما أنزل على قلب رسولك النبي الأمي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، الذي قال له الملك على لسان رب العالمين: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾.

اذكر هذا كله واذكر معه أنك حين تقرأ لا تقرأ شفاء القلب وحسب، ولكنك تقرأ غذاء العقل، وسُقيا النفس.. بل تقرأ منهج حياة وطريق سعادة، ويمتد بصرك بالقرآن إلى القرون الماضية والأمم الخالية، وتمتد أمامك

الصورة حتى تصل إلى أحوال تلك الأمم مع أنبيائها، وكيف كان صبر الأنبياء وكيف جرى الصراع بين الحق والباطل، ولمن كانت الغلبة في خاتمة المطاف. الأمر الذي يجعل للجماعة القسط الأوفر من بناء الفرد، فليس اتصالك بالله عن طريق القرآن عاملاً في تكوينك لتكون في إطار انعزال وتقوقع على نفسك، ولكنه إعداد لكل لبنة يجب أن يتكون منها صرح البناء لتأخذ مكانها الطبيعي اللائق.

وإنه لامتحان قاسٍ رهيب لا يفوز به إلا أهل الرضا، فلا بد أن تمتحن مقدار تأثرك بالقرآن، ذاكراً مقالة الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «ما جالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقص، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾».

وقائعٌ خالدة(*)

لقد كان من إكرام الله لهذه الأمة أن جعلها على محجَّة بيضاء نقيَّة، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وكان من معالم هذه المحجة ذلك الجسر الكريم الذي يربط بين الفكر والعمل في حياة الفرد والجماعة، فأنت واجد في كتاب الله عز وجل، وبيان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سيرته وجميع تصرفاته ما يوضِّح هذه العلاقة في كلِ الوقائع التي حفل بها تاريخ البعثة، بدءاً من الجهر بالدعوة وحتى لقي الرسولُ ربَّه بعد ثلاثة وعشرين عاماً من العمل الدائب والجهاد المستمر في تحويل جذري عميق، ووضع للمعالم الخيِّرة التي سارت على هديها أمتنا، فكانت خير أمة أخرجت للناس.

ولقد ينسى الكثيرون من أبناء جلدتنا، أو يتناسون، مدى قدرة ذلك الماضي البعيد على التأثير في ساحة الواقع القريب، أو رسم خطوط مستقبل تنشده الأمة ولو على المدى المتطاول المرتقب.

والحق أن الأمر بالنسبة لذلك الماضي ليس مجموعة من الأحداث التاريخية مقطوعة عن المبادئ، ولا وقائع جرَّتها المصادفة بعيدة عن التوجيه الرشيد، والدروس التي تثبت وجودها في ظل دعوة الإسلام. ولكنه عنوان الحركة التي تجعل العمل انعكاساً صحيحاً للفكر، وصورة صادقة لكل ما تستلزمه العقيدة وما يفرضه الالتزام.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثامن، السنة العاشرة، شوال ١٣٨٩هـ، كانون الأول وكانون الثاني ١٩٦٩م ـ ١٩٧٠.

فكل شيء في ميزان الدعوة بمقدار؛ الصواب له مكانه من الحسبان والتقدير، والخطأ ينال حظَّه من التقويم والتسديد؛ فلا وقوف ولا جمود، ولا تراجع ولا انتكاس، ولكن حركة دائبة يبدو على ساحتها التكامل، ووضع كل واقعة فردية كانت أو جماعية موقعها من البناء.

خذ على سبيل المثال معركة أُحد التي وقعت في شوال للسنة الثالثة من الهجرة؛ ما كان فيها من الشورى والموقف الحازم الذي وقفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ما كان فيها من التضحيات التي تعزُّ على النظير في تاريخ أي أمة من الأمم، كالذي تراه من موقف أبي دجانة وطلحة وأبي بكر وغيرهم.. ما كان فيها من موقف النفاق وأهله؛ تخذيلاً وتثبيطاً، حيث انسحب ابن سَلُول مع كل مَنْ يلوذ به ويوائمه في الجيش، ما كان من حال الرماة حيث ضعف فريق أمام إغراء الغنيمة، وخالفهم مَنْ يصرُّون على البقاء في مواقعهم حرصاً على إنفاذ أمر رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم ما كان من العاقبة التي ولَّدها عدم التزام البعض، وخطأ المخالفة، وما حصل من الإرجاف، وزلزلة بعض القلوب بإشاعة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قُتل. والموقف الذي وقفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الثُّلَّة الكريمة التي استجابت لندائه حيث الخطر المحدق في ذروته، ذلك الموقف الذي ازدان به تاريخ الإنسانية، وقدَّم الفرق الواضح بين النبوة والملك، وكيف أن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان خير داعية، وخير مَنْ يجاهد في سبيل الدعوة أخذاً بالأسباب وربطاً للنتائج بالمقدمات، بعد الاستعانة بالله عز وجل.

خذ ذلك كله، وانظر ماذا أنزل الله في قرآنه من آيات تتلى في شأن تلك الوقائع، واضرب في أرجاء تلك النصوص يمنة ويسرة. فإنك واجد - إن فعلت ذلك ببصيرة نافذة وعقل متفتِّح مدرك -: أن الدروس التي تعطيها المعركة بمقدماتها ونتائجها، وما ضمت بين جناحيها من وقائع، هي دروس للبقاء والاستمرار، لا عرض تاريخي للوقائع مقطوع عن المبادئ والقيم والمفهومات. ولسوف ترى أن الارتباط بين الفكر والعمل، بين العقيدة ومستلزماتها، من المنطلقات الأساسية التي أخذها القرآن الكريم بصرامة وحزم.

فمن تذكير بنصره للفئة المؤمنة القليلة ببدر، وأن مرد الأمر كله إليه، لتكون سمة المؤمن صدق التوكل عليه، جلَّ وعز، عسى أن يكون ذلك طريق شكره اللائق بنعمه التي لا تحصى ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾.

إلى توجيه يحمل كل المعاني التي تتسق مع رسالة هذه الأمة في العالمين، وطول الطريق التي عليها أن تقطعها في سبيل تحقيق هذه الرسالة على تقلُّب الليل والنهار، تلك المعاني التي قوامها: واقعية هذه الدعوة، والحرص على تثبيت أفئدة المؤمنين، وتقوية صلتهم بالله عز وجل، وتمتين أواصر الإيمان في نفوسهم، وأن السعيد مَنْ ينجح في امتحان التمحيص والابتلاء، فيعيش سعيداً، أو يتخذه الله شهيداً عنده، وما أسعد من يجعله الله في هذه المنزلة ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ**

قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

هذا إلى الرد الحاسم على كل أولئك الذين أصاب قلوبهم الهلع ـ بعد ترك الرماة مواقعهم، وإرجاف المرجفين بموت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحسبوا أن العمل حدُّه الزمني حياة الرسول الكريم، وعلى كل أولئك الذين جاؤوا من بعد أو يجيئون، يود أحدهم أن يفرَّ من مسؤوليته بحمل أعباء الدعوة فكراً وعملاً، ويلتمس لذلك المعاذير. وإلى كل هؤلاء وأولئك، نسوق قول الله تبارك وتعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾**.

فرسول الله هو المبلِّغ عن ربِّه هذا الدِّين، ومَنْ قَبلَ عن رسول الله فعن الله قَبلَ. غير أن حمل هذه الرسالة ليس محدوداً بزمن أو مرهوناً بوقت. إن الإسلام هو المحور الذي يجب أن يدور من حوله الناس، والناس يقربون أو يبعدون ولكن الإسلام باقٍ كما شاء الله له أن يبقى، ومن هنا كان لزاماً على من أراد مقنَعاً في أن كلمة الله هي التي يجب أن تعلو في الأرض أن يفرِّق بين انحراف بعض المسلمين عن الإسلام، وبين الإسلام في ذاته، وإنه لَبَلَهٌ ما بعده بله، أو خبث ما بعده خبث؛ موقف أولئك الذين يجعلون من

أخطاء المسلمين مسوِّغاً لتخلِّيهم عن الإسلام أو حكمهم الأرعن بأن الإسلام لا يصلح للحياة. ولقد كانت عظيمة جداً كلمة أبي بكر بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى، حيث أخذ الحادث الجلل من النفوس ما أخذ: [**مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإن الله حيٌّ باقٍ لا يموت**].

والانقلاب على الأعقاب... يا خسارة أولئك الذين ينقلبون على أعقابهم في رياحين الترغيب، أو تحت مطارق الترهيب.. أكاد أحسُّ أن الكلام ـ على عمومه مع خصوص سبب النزول ـ لنا نحن الذين قُسم لنا أن نكون في هذه الحقبة العصيبة من الزمن ﴿**وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾.

إنه لابد من الانسجام بين الفكر والعمل؛ لكيلا نقع في الذي يوحيه مضمون هذا الكلام الرباني العظيم. ولقد تكون النكبة أدهى وأمرَّ حين يبيض سوء التصور ويفرِّخ في أذهان بعض الناس، حتى ترى الديار بلاقع، ودنيا الفكر موحشة، فلا فكر ولا عمل، ولكن تمني الأماني والقعود مع القاعدين!.

وهذا ما تجده عند ضعفاء النفوس، الذين أدمنوا على جفوة الإسلام واستمدوا تصورهم من انحرافهم الآسن الذي يعيشون فيه، أو من فكر أولئك الذين ملكوا عليهم زمام الحركة والاتجاه، حتى إنك لتقع عيناك على أحدهم فلا تذكر إلا قول الله جلت حكمته: ﴿**كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾.

وإنا إذ نترك تفصيل القول في المعركة ودروسها إلى مظانه ومراجعه؛ لأن هذا ليس موطن التفصيل، حسبنا أن نذكِّر بأن الأمة التي تريد الحياة، لابد أن تعود إلى ما به قوام الحياة.

ففي الأيام العصيبة، والليالي التي تزمجر بالنذر، كم يبدو الواجب محتماً على هذه الأمة، وخصوصاً الفئات الواعية فيها، المتطلعة إلى نصر الأمة وتحقيق غاياتها ورسالتها للعالمين، أن تراجع رصيدها من الفهم التكويني المثمر لتلك الوقائع الخالدة، والإدراك الحركي الواعي لطبيعة التوجيه القرآني، الذي كان يرسم ـ من خلال تلك الوقائع ـ الطريق الراشدة.

ذلك أن أشخاص تلك الوقائع مع ما أكرمهم الله به من الفضل، في أن كانوا تلامذة النبوة وأصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، والمتَّعين بجلال الوحي ونور السماء، لم يعدوا أن يكونوا بشراً من البشر، فيهم من حاز قصب السبق تسليماً لحكم الله، والتزاماً لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وبذلاً للنفس والمال والولد في سبيل الله، وفيهم من غلبه ضعف الإنسان، فوقع في يسير من المخالفة، وفيهم من كان وسطاً بين ذلك، والجميع على خير، وقد ابتلوا رضوان الله عليهم بالمنافقين، وبمن وراء المنافقين من اليهود وأهل الشرك. فكان من واقعية الإسلام ما رأيت من انطلاق التوجيه القرآني الحكيم من الواقع بوصفهم بشراً، ووضع كل أمر موضعه، صواباً كان أو خطأ، ما دقَّ منه وما جلَّ، وربط ذلك كله بخط

الهداية العام الذي جاء به الكتاب، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ناهيك عن جعل هذه الأمة وسطاً، وربطها بالمحور العالمي للإنسان، والدعوة إلى الاعتبار بسنن الماضين، وما كان من سُنّة الله في هذه الأرض، ونواميسه في هذا الكون، وما هي عاقبة المتقين، وكيف كانت عاقبة المكذبين، وفي ذلك ما فيه من إشعار بعالمية التحرك بالنسبة لهذه الأمة.

ولا يدع ذلك إلا مقروناً بما يصحبه من الدخول إلى أعماق النفس الإنسانية، في رغبها ورهبها، في رجائها وخوفها، في أشواقها وتطلعاتها، مع حسبان للفطرة والعاطفة والعقل والشعور، وما كان من غرائز وميول، ولم يكن هنالك أي إغضاء عن الرواسب الموروثة، وما يكون من واقع هو حصيلة تاريخ طويل، لا بد من إعارته ما يلزم من طرائق المعالجة كي يمكن استنقاذ الأمة من الوهدة، والأخذ بيدها إلى مرابع الخير والنور.

على أن هذا الطابع المميز للتوجيه القرآني، الذي يعطي الوقائع سمة الخلود والبناء، وينأى بها عن أن تكون محدودة بالزمن والأشخاص، إنما تكون له إيحاءاته المثمرة، حين يصادف تلك القلوب المشرقة بنور الإيمان، والنفوس المتطلّعة إلى المعرفة بصدق وتجرد، وعزائم الرجال التي تحركها الحسرة على واقع الأمة، ولهفة الحرص على استئناف الطريق الصاعدة من جديد.

ولقد يكون ذلك مطلباً عسيراً على أولئك الذين يلهون بالمزاعم ويحلمون بالأماني، ولكنها سنة الله في البناء والتكوين، ولعل الذين في مقدورهم أن

تمتد أيديهم إلى اللبنات تحركها لتأخذ موقعها من ذلك البناء هم المطالبون أكثر وأكثر بمراجعة ذلك الرصيد الذي ألمحنا إليه، وإنَّ ساحات كثيرة خالية تنتظر عمل العاملين وصدق الصادقين. وكلما ثقلت مسؤولية المسلم شعر بفضل الله عليه أن أعدَّه لحمل هذا العبء؛ لأن معنى ذلك أنه قد اختاره لذلك، والخيرة فيما يختاره الله. وذلك عنوان إيمان واصطفاء ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾. ثم: أترى عزيزاً على الله أن تكون تلك الخيرة فاتحة أن يتخذه الله شيهداً، أن يتخذه لنفسه، ليكون «شهيداً» (فعيل صيغة مبالغة من شاهد) يشهد على هذا الحق الذي بعث به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟

وكم يبدو ذلك عظيماً في هذا العصر الذي تجنَّد فيه الصوارف عن الإسلام على النطاق العالمي وعلى كل المستويات، ولا تجد بين الأعداء على تنافرهم فيما بينهم أي اختلاف عليه. حتى وصل بهم الأمر إلى محاولة تحريف آيِ القرآن الكريم، تجربة ناطح الصخرة، وتهديد الذبابة للجبل ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾.

إن الطاقات كلها، في الفكر، والعلم، والجسم، والمال، وكل ما يمكن أن يجده المسلم، مدعوَّةٌ لاقتحام العقبة، والفوز برضى الله الذي ليس عنده إلا الخير، ومَنْ يدري أيُّ أولئك يكون صاحب الهدية الغالية وهي الشهادة في سبيل الله؟!

وشتان بين مَنْ يرى في ثقل العبء مسوِّغاً للانفلات فينقلب على عقبيه، وبين من يراه الفرصة المواتية للعمل الجاد في سبيل مرضاة الله عز وجل. وإذا كانت مرضاة الله مبتغًى ينفق فيه المؤمن ساعات الليل والنهار، وكانت الجنة عنوان ذلك الرضا في الآخرة، فإن علينا أن نسلك الطريق وأن نصبر على ما يستلزمه ذلك المبتغى، ذاكرين أبداً قول الله تبارك وتعالى في ثنايا الحديث الخالد عن وقائع أحد: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾.

obeikandl.com

فريضة الإسلام وواقع المسلمين (*)

ماذا وراء تلك الفريضة التي هي خامس ركن من أركان الإسلام؟ وماذا وراء تلك الشعائر التي يفترض أن تخطَّ طريقها بعمق إلى نفس المسلم، وأن تملك عليه منافذ قلبه ووعيه؟ إن هذا سؤال لا نطرحه من أجل الإجابة عنه، ولكنا نطرحه مذكِّرين بأن شرعة الله دائماً ـ وهي خير كلها ـ لا بد أن تعمل عملها في تغيير واقع المسلمين إن هم عزموا أمرهم وأدركوا شيئاً من حكمة الله فيما خاطبهم به من التكليف، وما حمَّلهم من أمانة العمل.

وعندما يتوافر للأمة الأحساس الصادق بأهيمة التكاليف التي هي مخاطبة بها، والواجبات التي أنيط بها تحقيقها، يكون في مقدورها أن تفيد دائماً من ماضيها لحاضرها، ومن حاضرها لمستقبلها؛ لأن ذلك الإحساس يعني الحركة الذهنية الفاعلة المؤثرة التي تنعكس على الواقع، فتجعل منه عنوان إبداع تصوغ من مقوماته الخطوة المتقدمة دائماً، تلك الخطوة التي تعني استمرار الخط المستقيم، واستكمال عناصر القوة والاستمرار.

نقول ذلك في ظل أيام وليال حافلة بشعائر هذا الدين وهديه في الحج والعمرة، حيث تتطلع القلوب إلى السماء، وتهفو النفوس في ظل البيت إلى ربِّ البيت، وقد تحرقت شوقاً إلى حيث تغسل الدموع حوبة المذنبين، ويقبل رجاء المنيبين التائبين.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العددان التاسع والعاشر، السنة العاشرة، ذو القعدة وذو الحجة ١٣٨٩هـ، شباط وآذار ١٩٧٠م.

وليس بدعاً أن يأخذ ذلك بأيدينا إلى حقائق عميقة الجذور في تاريخنا الفكري العريق؛ لنبصر من خلالها تلك الدورة المتكاملة أبداً وعلى المدى بين الوقائع والتكاليف، وما يمكن أن يكون وراء ذلك من الثمرات.

إننا في مواجهة واعية للنص القرآني الذي يتحدث عن رفع قواعد البيت نجد شيئاً من الترابط بين أمرين اثنين ترابطاً يستوقف ذوي البصائر، ويحق له أن يكون كذلك ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ...﴾.

فأنت واجد أن رفع إبراهيم وإسماعيل لقواعد البيت قد اقترن بالمعنى الذي من أجله رفعت القواعد - وهو الإسلام - وفي سبيله أمر إبراهيم أن يؤذّن في الناس بالحج، وأن إبراهيم وإسماعيل يدعون الله بالقبول، كما يدعوانه أن يكونا على تلك الطريق إسلاماً واستسلاماً لأمره فيما يريد سبحانه، وأن يتحقق ذلك في ذريتهما.. إلى ما وراء ذلك مما توحي به مجموعة الآيات في سورة البقرة. إن هذا الاقتران واضح بين الكلمة والحركة، بين العمل والمعنى الذي من أجله كان العمل، وفي سبيله كلّف رسولان كريمان أن يرفعا قواعد البيت.

ولعلنا لا نبعد النجعة حين نربط بين رفع قواعد البيت مقترناً بدعوة التوحيد وبين تلك الشعائر التي فيها الطواف والسعي والوقوف والرمي.. وفيها تلك الشعيرة الهادرة (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك..)

إن الطواف حول البيت الذي يعني توحيد الوجهة، وإخلاص العمل، والبعد عن التلفت والوثنيات من هنا وهناك، لابد أن يلحظ معه أن التلبية اللسانية التي تتعالى بها الحناجر هادرة معتزة ـ في السهل وعلى شعاف الجبال والمنحنيات، وبطون الأودية ـ يفترض أن تنعكس على كل التصرفات، كيما ينطق السلوك بالتلبية المستجيبة حقاً لأمر الله، حيث يذكر المؤمن أن قوله: «لا شريك لك» مُشْعرٌ بأن التلبية الحقة المبينة هي من مقتضيات التوحيد.

وإذا تصورنا أنه ليس في الإسلام طقوس على مثال ما ندعوه بالطقوس الكنسية، وأن العبادات كلها ـ والحمد لله ـ بالرغم من أنها لا تعلل، وأنها مظهر من مظاهر الامتثال لأمر الله عز وجل، تبصر من خلالها ذلك الفيض النوراني العظيم، وتحسَّ بقلبك ذلك العطاء الإلهي الذي لا يحدُّ، مع الطمأنينة وانشراح الصدر والشعور بالرقي في مدارج الرضا وسعادة الدارين. إذا تصورنا ذلك.. استطعنا أن نخطو إلى حيث نضع الأمور مواضعها في شأن تلك العبادات والشعائر.

إن المسلمين اليوم مدعوون لأن يكونوا على المستوى اللائق لما يخوضونه من معارك لابد أن يبذل لها الكثير من الإعداد والاستعداد.

إنهم يخوضون معركتين حمي وطيسهما واشتد أوارهما، معركة مع النفوس لتطويعها إلى شرعة الإسلام التي إن أظلَّت عم النفع والرخاء، وإن انحسرت وتراجعت، ساد الضر والبلاء، إنها معركة مع المغريات والصوارف

عن الإسلام، معركة مع الترغيب والترهيب، بل مع الجهل والتناقضات وتزوير الحقائق، ولا تنسَ دور الغفلة حيناً والشهوة وطلب العافية أحايين.

فالتلبية إعلان، والطواف حول البيت والوقوف بعرفة عهد وموثق، ولابد أن يحفر ذلك خطه العميق في رصد نتائج هذه المعركة في ظل قول الله تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. إن ساحة المعركة هنا لا يستهين بها إلا مَنْ سفه نفسه، وفاته من اليقظة حظ كبير.

أما المعركة الثانية: فهي المعركة الخارجية التي تبدو منوَّعة هنا وهناك، ولكنها في حقيقتها شيء واحد متعدد السمات والألوان والمظاهر، تتشكل حسب البيئة والمناخ. والتحديات الكافرة للإسلام في أرضه وفي مبادئه لا يمكن الانتصار عليها إلا بالاستجابة الصادقة لأمر الله عز وجل ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، كلٌّ على الثغر الذي أقامه الله عليه.

والذي يجب أن تكون الأمة على ذكر منه: أن الله بحكمته وعدله ربط الأسباب بالمسببات في هذا الكون، وأقام نواميس الحياة على نظام أكمل، ترتبط نتائج العمل فيه بالمقدمات، فلا بدع أن يكون المسلمون مطالبين بالصعود إلى وفق ما تستلزمه معارك الأمة من حشد طاقات الفرد والجماعة في سبيل تحقيق كلمة الله في هذه الأرض. فلقد يحسب حاسب أن الله ينصرنا بوصفنا ننتسب إلى الإسلام، لا والذي قال في كتابه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ لن يكون ذلك إلا إذا سلكنا السبيل التي أمر بسلوكها، وكانت حركتنا من خلال ذلك السلوك.

وإذن فلابد أن يشعر الفرد بأن الواجب يلاحقه ليؤدي أمانة الإسلام في أي ثغر أقامه الله تعالى عليه، وأن الشعائر التي يُتَعبد الله تعالى بها هي شاهد عليه في دعواه ينطق بالحق لا يحابي ولا يماري.

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء

مرة أخرى: إن النداء السماوي الذي جاء بالألوف المؤلفة إلى ظل أول بيت وضع للناس؛ لتلبي كلُّها، لتطوف كلُّها، لتسعى كلُّها، لتقف بعرفة كلُّها، لتتحرك كلُّها في السهل والجبل وبطون الأودية، لهجةً بالتلبية، ناطقة بالدعاء، خاشعة لله، ذليلة بين يديه. إن النداء السماوي الذي جاء بها جميعاً هو النداء نفسه الذي يحدوها اليوم لأن تصيخ السمع إلى كلمة الإسلام من جديد، فتذكر واقع المسلمين في كل صقع من وطنها الكبير، وتضع كل طاقاتها في خدمة العقيدة التي عليها اجتمعت الأمة، والشرعة التي على هديها سادت حضارتها في العالمين. إنها مدعوة لأن تعقد الخناصر على أن تكون وفية لعهد الإسلام، صادقة مع نبي الإسلام، مستجيبة لدعوة القرآن.

إن الإطار العاطفي الذي يتحرك من خلاله ملايين المسلمين في هذا العصر ليس إلا عنصراً من مقومات الوجود المسلم، ولكنه لا يكفي، ولابد من أن تترجم العواطف في إطار العقيدة والجهاد إلى علم وخبرة ومعرفة، كيما تتفتح نوافذ المسلم على الحياة، وتطل على الواقع، حتى يبصر ما حوله وهو أكثر نفاذاً، وأوفر قدرة على معالجة المشكلات.

وعندها لا يكون العمل عبارة عن رد فعل، وانعكاساً لقضية طارئة أو حركة مفاجئة، وإنما هو عمل يتسم بالأصالة والمنهجية وسلامة المرتكزات.

إن من خصائص العمل عند أعداء الإسلام اليوم الإفادة من العلم، والتخطيط المنهجي للفرد والجماعة، . . وعلى المدى البعيد. . فأنت واجد في مشكلة فلسطين ـ على سبيل المثال ـ ربطاً للغاية عندهم بالدين واللغة وهيكل سليمان وحائط المبكى، وأرض الميعاد وأنهم شعب الله المختار، وحشداً للخبرة الفنية وإفادة من كل ما يقدمه العلم من جديد، ورصداً لكل خطوة حضارية يمكن أن تفيد في تحقيق الهدف، ناهيك عن القضايا السلوكية في الاستغلال والدجل والشعوذة من طريق الإعلام وأجهزة الدعاية وما إلى ذلك.

ولقد رأينا في نيجيريا ـ وما يزال الثرى يموج بالدماء والأشلاء ـ كيف أن أهدافاً معينة ترصد لها طاقات وإمكانات معينة من هنا وهناك، وكم لبس الزيف ثوب الإخلاص، والجريمة ثوب الحرية والحفاظ على أرواح الأبرياء، حتى صار السلام يرسل باسم الغذاء والدواء. ولا تسل عن برقع الدين ومسوح الرهبان كم شرَّقت وغرَّبت وضربت في طول أرض المعركة وعرضها.

وإنا لنعوذ بالرحيم الرحمن أن يكون من غرضنا إيقاع اليأس في النفوس، ولكنا نريد أن لا نكون بعيدين عن الواقع في معركة طويلة الأمد مع الأنفس لتطويعها أولاً لحسن الامتثال، والسير على الطريق التي يرتضيها ربنا تبارك وتعالى. والحركة الإيجابية ثانياً في تقديم كل ما توجبه المعركة الأخرى مع الأعداء.

فالعزلة بين المسلم وبين الواجب: ضربٌ من النفاق قد يؤدي إليه لون من ألوان البله التي يجود بها بعض المتنطعين من أدعياء الإرشاد والتوجيه.

والضِّنة على دعوة الإسلام بأي قدرة من القدرات التي أعطيها المسلم: كفر بنعمة الله وخيانة للأمانة ونكث للعهد.

إن شعائر الحج والعمرة تذكِّرنا بوقفة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم الفتح حين وقف يقلب بمخصرته تلك الأوثان التي كانت حول الكعبة والتي بلغت ستين وثلاث مئة وثن، وهو يقول عند كل واحد منها: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾. كأني به وقد كررها صلوات الله وسلامه عليه ثلاث مئة وستين مرة ـ ولا نتألى على الله ـ، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، لقد أراد أن يقتلع الوثنية من النفوس، وأشعر القوم بأن الحق هو التوحيد وأن الباطل هو الوثنية، فلتضرب جذور هذه العقيدة في العقول والقلوب، ولتنعكس على الواقع تعمل فيه تغييراً وتحويلاً إلى وجهة الحق، حيث تقترن الكلمة بالحركة، وتنعكس العقيدة على ميادين الحياة؛ إقامة لشعائر الدين، وإفادة من هذه الشعائر كي تعمل عملها، في الساعد، والفكر.

ومن هنا نقول، والألوف من المسلمين يحتشدون في ظل البيت العتيق، ويتحركون على الأرض التي أعلنت على رباها أول كلمة من كلمات الإسلام، وعلى ثراها جرى دم المجاهدين زكياً نامياً منبتاً بقيادة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه الصابرين الصادقين. نقول: إنه يوم تمدُّ العقيدة في النفس مدَّها، يرى المؤمن بعين بصيرته أن إقامة شعائر الحج في رحاب البيت الذي قام إبراهيم وإسماعيل في رفع قواعده، أمر له ما بعده..

ويرى الحاج في سلامه على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نقطة بدء في العودة الصحيحة إلى طريق صاحب الرسالة الذي يسلم عليه. إنه يوم يكون الأمر كذلك.. تستطيع تلك السواعد التي ترفع الأكف إلى السماء، أن تحوّل مجرى التاريخ لصالح هذه الأمة، في ميادين الحرب والسلم وفي مواجهة التحديات الظاهرة والباطنة على السواء.

إننا ونحن نتحدث في ظل واقع مرير يقضُّ مضاجع المخلصين، نشعر أن لهيب المأساة لابد أن يضيء طريقنا إلى القرآن من جديد، حتى نعلم حقاً أن الإسلام هو قوة الغد، وأنه المثابة التي لا مندوحة للأمة من أن تفيء إلى ظلها، إذا أرادت أن يعود إليها غداً ما أضاعته بالأمس، وعندها لن تفتقد أولئك الرجال الذين يزرعون دروبها أملاً، ويهبون وجودها معنى الحياة والاستمرار، من فتية يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم. وهنالك تقع عيناك على الكثير الكثير من أولئك الذين إذا دُعوا أجابوا، وإذا نودوا لبّوا النداء. أولئك الذين يفترشون الأذى. وتراهم يقلُّون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع.

همُّ الواحد منهم ـ على بُعد الطريق ومشقة الصعود ـ مرضاة الله تعالى دون تدافع أو تنازع، ولو كان الثمن إزهاق روحه. إنه لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، وذلكم وحده طريق القافلة التي كان في ريادتها أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾.

وأخيراً: إنّا لنسأل الله تعالى ـ في ختام هذه السنة العاشرة من عمر المجلة المديد إن شاء الله ـ أن يهبنا قوةً من عنده، وأن يعيذنا من فتنة القول والعمل، وأن يأخذ بأيدينا إلى حيث نؤدي الأمانة على الوجه المطلوب بعونه سبحانه.

كما نسأله ـ وهو الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة ـ أن يجزي إخواننا الكاتبين والعاملين من ذوي الأسماء المعلنة وغير المعلنة كل خير، وإن يلهم أولئك الذين ما يزالون يغفلون أو يتغافلون عن بعض واجباتهم تجاه المجلة أن يستأنفوا المسير؛ كيما يسهموا في إزاحة بعض العوائق وأشواك الطريق، والله الموفق إلى خطوات جديدة موفقة تلبس معها المجلة ثوباً جديداً في عامها المقبل، فإلى ربيع الأول القادم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً.

العهد الكبير(*)

وأي عهد هو . . إنه العهد الذي يظلنا جلاله في ذكرى مولد محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، عهد العمل على أن نكون مع صاحب الذكرى في هديه وكمال شرعته، علماً وعملاً وجهاداً، واعتزازاً بما جاءنا به من الهدى والخير، وما أوحي إليه من الحق الأبلج والنور المبين ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

إننا بوصفنا مسلمين مأخوذ علينا ـ والعهد مسؤول ـ أن نكون ـ مهما جاءنا من رغب أو رهب ـ على خط الالتزام الواعي، وقوفاً عند الحدود التي دعا إليها صاحب الذكرى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وجمع الناس عليها، وصبر وصابر، في سبيل أن تكون راسخة الجذور، متينة الأواصر، يعمُّ نورها أرجاء الأرض، ويضيء هداها في العالمين، فكان خير قدوة في تاريخ الإنسانية لمن يدعو إلى الحق، ويجاهد في سبيله، ولا يبخل بالعطاء مهما كان جلال العطاء، ولا يقعد عن الجهاد مهما كانت تكاليف الجهاد.

ولعل من أوليات المسائل والواجبات أن نحاول تطويع هذه النفوس النافرة، والقلوب القاسية، لتذكر ذلك كله في شهر ربيع الأول الذي كان خيراً على الأيام وإلى المدى . . لأنه الشهر الذي ولد فيه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الأول، السنة الحادية عشرة، ربيع الأول ١٣٩٠هـ، أيار ١٩٧٠م.

ولسنا نريدها ـ وايم الحق ـ كلمات ترتسم ليزدان بها وجه القرطاس، ولكنها الأمانة.. ولكنها صدى النكبات المتعاقبة على هذه الأمة، والفتن التي أتت تقطع الليل المظلم، وصرخات التاريخ الذي لا يني يجيل الطرف بين ماض وحاضر، ماضٍ يزدان بالعزة التي تملي، والقوة التي تحرس شريعة الحق، وحاضر يطوقه الأسى وتعلوه كآبة التأخر والانحراف.

وإذا كنا نذكِّر بالعهد والالتزام، فإنما كان ذلك لأن صدق ما عاهدنا الله وعاهدنا رسوله عليه هو المنطلق الصالح المؤيد لنهضة الأمة من عثارها، وما يكيد لها أعداؤها ويعدُّون من أسباب الهوان؛ ففي غمرة الأحداث التي تتصاعد إلى مداها عدوانًا على الأرض والكيان والوجود، جديرٌ بها أن تستمسك بتلك الأصالة من منابع القوة وموارد الخير، وتسلك إلى ذلك سبيل العمل الذي يقوم على العقيدة والمنهج، وينأى عن الفوضى والاستهتار.

ومع ذكرى مولد سيد العالمين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لابد من الإشارة إلى بعض الأمور: فبنظرة فاحصة يفترض أن تولدها مرارة النكبة، لا مندوحة عن تقويم هذه الهزة التي تعتري العالم الإسلامي في تلك الذكرى! ما هو مدلولها الحقيقي؟ وإلى أي مدى تبدو ذات صلة بمفهومات الأمة عن الرسالة التي ابْتُعث بها من أرسله الله رحمة للعالمين؟ وإلى أي حد تنعكس على المقاييس التي بها يوزن الرجال وأعمال المصلحين؟ ثم ما هو الجسر الذي نعبر عليه إلى عام الفيل قبل أربعة عشر قرناً من الزمان؟

حيث ولد سيد الكائنات في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول يومذاك، ليكون ذلك المولد إيذاناً بحمل رسالة جاءت على رأس الأربعين من عمر مبارك ميمون، وتقدمها ما تقدمها من الإرهاصات، فكانت بدء تحويل جذري في حياة الإنسانية جمعاء، والنور الذي أضاء جنبات الأرض ومسح عن جبين البشرية ليلها البهيم، فشرح الله برسالته صدوراً آمنت وعملت وجاهدت، وضلّ أقوام فخاب فألهم وظلوا في جاهليتهم يعمهون، حتى توضَّحت معالم الطريق، وقامت في المعمورة صُوى الحق، ونادى منادي الجهاد، وأذَّن مؤذن الحياة حيَّ على الفلاح، وتقدَّم أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، فدقوا حصون الضلالة بمطارق العقيدة والمعرفة، ورسموا لقافلة الإيمان طريق المتابعة والاستمرار، وربطوا قلوب أبنائها بالله عز وجل وبهدي رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وستظلُّ هذه القافلة أمينة على العهد وفيَّة للأمانة حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

وإنه لا بد من التساؤل عن حقيقة لا تخفى على الواعين من أبناء الأمة ألا وهي: إلى أي مدى تُجاوز تلك الهزَّة السطح الخارجي لتدخل إلى الأعماق، فنقوم بعملية التحويل الأصيل عن الغفلة التي تغط في مستنقعاتها الأمة، وتتمرغ في أساها هنا وهناك، على مختلف الساحات والمستويات؟ إنه بقدر ما يكون صدق تصورنا عن كمال الحقيقة المحمدية في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وكمال الرسالة التي جاء بها وحياً من عند ربه.. نستطيع أن نتحرر لنمسك عاتق الميزان بإخلاص، ونشير بجرأة الرجال إلى مكمن الداء ونقطة الضعف، بل وموارد الهلكة التي تقف على شفاها هذه الأمة.

وإنما كان ذلك في يقيننا لأن الهزة ما دامت نشوة عابرة تلمس السطح العاطفي من حياة الأمة فتبدو قاصرة على احتفال ظاهري يعم أقطار العالم الإسلامي فلن يكون ذلك وحده كافياً لأن يعمل عملاً يلامس الجذر ويوجِّه القضية من الأعماق.

وليس المهم الآن أن نسرح ونمرح في بحر من الندب والنواح، أو أن نسبح في مثله من المفاخرة واللهو والطرب وإضاءة الأنوار، ولكن المهم أن تمسك اليد الأمينة بالسراج لتعثر على مكمن الداء في جسم الأمة، وترى إلى أي حد كان هذا الجسم متأثراً بالإعراض عن مضمونات تلك الرسالة، خصوصاً والتجارب والنكسات كلها تقوم أدلة صارخة على أن الإسلام هو المنتجع الصادق الذي لا غنى للبشرية عن أن تفيء إلى ظله ولو بعد حين.

إننا ـ والعقيدة تحرك مشاعرنا ـ لابد أن ننظر بحذر بالغ إلى أي ظاهرة تكون حاجزاً عن الحقيقة، بحيث يحسب الغافلون أنها تكفي لأن تكون جسراً نعبر عليه، زاعمين أن هذا هو الإسلام، وتلك هي الصلة بنبي الإسلام، بينما يُهدم الصرح لبنة بعد لبنة.

وهكذا.. فإن الانفعال ـ مع جلال هذه الذكرى ـ يكمن في تجاوز السطح إلى الأعماق، والنظر إلى العمل بمضمونات الرسالة التي جاء بها صاحب الذكرى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، نظراً أكثر جدية وحزماً وقوة. ويوم نحمل أنفسنا على مركب الصدق، وتنقلنا إلى الحقيقة أقدام الجرأة الأدبية العارمة، نجد أن الاحتفال بذكرى مولده في الحدود التي ترضاها الشريعة، يجب أن

يكون صورة عن الاحتفاء بهديه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وكم نكون على حافة الخطر حين تكون الملامسة القشرية عملية تفريغ لشعور الأمة وإجهاض لطاقاتها، تحس معه أنها قد فعلت شيئاً وفاءً بذكرى مولد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنها ـ مع الإعراض عن شريعته وحكمه ـ تحسب نفسها على الجادة فلا عدوان على الدين، ولا انحراف عن طريق المسلمين. ألا وإنها لطامة كبرى بعد هذا أن تقع في حمأة التهاون بهذا الهدي الذي كان عنوان الحياة، وطامة أشد وأعتى أن نستبدل به شيئاً آخر من أراجيح هذا العصر، فنُعظِّم ما حقر الله، ونرفع ما وضع الله، ونبدو وكأننا من عبدة الأوثان، حين نستخدم للحكم على الرجال والمصلحين مقاييس غير مقاييسنا، وموازين نستعيرها من هنا وهناك، فنُعرِض عن تعظيم صاحب الرسالة قولاً وعملاً وسلوكاً، ونجنح جنوح الأغبياء في تعظيم مَنْ لا تطول رؤوسهم أخمص قدميه؛ بل غبار نعليه، وهو الذي أنقذنا الله به من الهلكة، وأخرجنا برسالته من الظلمات إلى النور.

ألا إن يد محمد الصَّناع التي استطاعت ـ بإذن الله ـ أن تهزّ أرض الإنسان في الماضي، فتنبت فيها من معاني الخير والحضارة والحق كل زوج بهيج، هي القادرة اليوم وكل يوم أن تعيد الحق إلى نصابه، وأن تزيح من طريق الأمة ركام الأذى وأوضار الباطل، والمهم أن تمتد إلى هذه اليد الكريمة تلك الأيدي الواعية المدركة وفاءً للعهد الكبير، مؤمنة أن من حق الأمة عليها أن تلوذ بالإسلام من جديد، ذاكرة أن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة ولا تخفى

عليه خافية، وأنه قد خلَّد في قرآنه صنيع أولئك الذين صدقوا ما عهدوا الله عليه في آية تتلى في محاريب المسلمين، ويتداولها أهل الحق جيلاً بعد جيل، وإنها لآية جديرة أن تخشع لها حتى قلوب الجبابرة والحجارةُ الصُّم ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

إننا إن فعلنا ذلك، فجدَّدنا العزيمة على الوفاء وحكَّمنا مقاييس الإسلام بالعمل وبمن يعملون، كنا على جادة الفوز والقدرة على تغيير واقع الأمة، وإلا حقت علينا تلك العقوبة الزاجرة المرعبة التي نادى بها الكتاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾.